

حكايات (أبي القمام) نقف مع بخلاء الجاحظ أمام مجتمع كامل يعرض البخل بشتى اصنافه وطرقه ويمارس الجاحظ الدور الرئيسي في التعبير عن هذا المجتمع من خلال الواقعية التي اتسم بها أسلوبه مصوراً البخل في عصره من غير مداراة ولا مواربة حريصاً على نقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها وعبر سياق حكايات واقعي لا مجرد أخبار عابرة. والرواية عند الجاحظ تتسم بقواعد عامة منتظمة أساسها الصدق والواقعية يحرص فيها على إقامة علاقة واضحة الأبعاد بينه وبين القارئ (السامع) مع الحرص على دوره الأساسي في القيام بوظيفة السرد. ولهذه الوظيفة درجات فهي إما أن تعتمد على الأسلوب المباشر في نقل الكلام الذي سمعه الجاحظ من غيره ، سارداً الحكاية بأسلوبه الخاص وهو عندئذ يستخدم المفردات (حدثني ، وفي أحيان أخرى يميل الجاحظ الى نقل الحكاية كما وردت على لسان أصحابها فيستخدم عندئذ المفردات (قال ، دون ان ينسى الجاحظ ان يدعم حكاياته بالسند والرواية إلا في بعض الحكايات . والجاحظ في نقله للحكاية التي تجسد البخل يعنى عناية فائقة بالجانب التعبيري فيستخدم لكل شخصية ما يناسبها من ألفاظ وتعبيرات ومنطق بما يطابق في مستواه التعبيري ما تمثله الشخصية في الحياة على الرغم من أن معظم الشخصيات قد اجتمعت على صفة واحدة هي صفة البخل . ويستخدم الجاحظ أساليب عديدة تجعل من كتابه اقرب للسرد القصصي منه الى الحكاية الاخبارية ، فطريقته في السرد ليست أداة توصيل فحسب بل هي وسيلة لجذب اهتمام القارئ وتشويقه وجذبه للمشاركة في الرؤية التي يصدر عنها، اي (موقفه من البخل والبخلاء) ، وينبغي ان نلاحظ هنا أن العلاقة التي تجمع الراوي (الجاحظ) بالأشخاص (البخلاء) هي علاقة عدا وتنافر . وسنحاول أن نستعرض الجوانب التي ظهر فيها السرد من خلال الوقوف على نموذج البخل الذي يمثله "أبو القمام" ، والجاحظ يروي بعضاً من الحكايات التي دارت حول هذا الرجل مستخدماً أسلوب السرد المعتمد على نقل الحكاية كما جاءت على لسان صاحبها. ويبدأ الجاحظ كلامه عن هذا الرجل بنقل كلام على لسانه حول وجوب "ان يحافظ المرء على ما صار في يده وألا يفرط فيه الى يد غيره لأنه لو فعل فقد أباح لغيره أخذ ما كان له". ولعل في هذا القول ما يكشف عن المستوى العقلي الذي يتمتع به أبو القمام ، فكلامه أقرب الى حديث المتكلمين والفلاسفة وطبقة المثقفين ، والحقيقة أن أبا القمام هذا وكما جاء في (أنباء الرواة) وفي (البيان والتبيين) ، هو أبو القمام الأسدي الذي كان صاحب نوادر ورواية وشعر ، روى عنه الكسائي واختار له أبو تمام بعض الشعر . ولعل هذا القول لأبي القمام والذي افتتح به الجاحظ حديثه عنه يعد بمثابة التمهيد والإعداد التجهيزي للحكاية فكأنما يقول الجاحظ للقارئ هذا هو فكر الرجل فأليك سلوكه وانظر كيف وظف فكره في حياته . والجاحظ كان قد أعد القارئ مسبقاً للوقوف أمام هذه الشخصية المثقفة حين أشار في مقدمة كتابه الى تعجبه من ان هؤلاء البخلاء على الرغم من غباثهم الشديد إلا أنهم يتحلون بفطنة عجيبة . وتكشف لنا الحكاية التي يوردها الجاحظ عن تناقض بين المستوى العقلي والمستوى الاجتماعي لهذه الشخصية ، ولعل أول الإشارات الى هذا التناقض تبرز من خلال الحوار الذي تديره المرأة فهي تبدأه بقولها " ويحك يا أبا القمام " وكلمة " ويحك " وإن لم تكن المرأة تقصد بها الى الشتم والزجر في ظل السياق الذي جاءت فيه إلا أنها توحى بدنو منزلة المخاطب ، ولعل ذلك يحيلنا الى شخصية أبي القمام لنبحث فيها وفي الاسم الذي تحمله ، نجد أن القمام في اللغة هو إناء من نحاس أو فضة يجعل فيه الماء ، أو هو نوع من الجرار يحملها السقاؤون ، وعلى الرغم من أن الجاحظ لم يشر الى مهنة أبي القمام الا أنه إن صح أن أبا القمام كان يمتهن السقاية فإنه يصح تناسب مستوى الخطاب مع الشخصية . ولننظر في الحكاية الأولى وهي واحدة من ثلاث حكايات تجمعها عناصر عديدة. أول العناصر أنها جميعاً حكايات قصيرة ومكثفة تظهر فيها صنعة جاحظية تعتمد الاهتمام باللفظ الموحى المستخدم للتعبير عن مشهد كامل وصورة كاملة ، على عكس ما عرف عن الجاحظ من الاستطراد والعنصر الثاني هو أن البطل واحد وهو أبو القمام (البخل) وهو يمارس الحيلة دائماً للوصول الى هدفه أو للتخلص من المآزق التي يقع فيها ، والعنصر الثالث إن الضحية في كل الحكايات هو امرأة . نتحدث الحكاية الأولى عن امرأة كانت تستعد للزواج (النهارى) وأرادت أن تتجمل لزوجها فطلبت من أبي القمام أن يحضر لها برغيف آساً تتعطر به وبفلس دهنأ تتجمل به لكنه أخذ الرغيف والفلس وذهب دون أن يعود ، وعندما لقيته بعد أيام سألتها عما فعل بها حين تركها فأجابها أن الفلس قد سقط منه وأنه من غمه أكل الرغيف . والحكاية تكشف في الجانب الاجتماعي عن الزواج النهاري ويبدو أنه زواج خاص وربما اقيم في النهار تحاول فيه الزوجة إرضاء زوجها بكل السبل الممكنة ، والأمر الثاني يتعلق بشراء السلع حيث يتم استبدال سلعة بأخرى كما هو في حال استبدال الآس بالرغيف . وفي هذه الحكاية يدير الجاحظ جل الحوار على لسان المرأة (الضحية) فتبدأ بعرض سوء حالها وتبالغ في محاولة لكسب تعاطفه وترغبه بالأجر والثواب " فإنك تؤجر . فعسى الله أن يلقي محبتي في قلبه . فقد والله ساءت حالي وبلغ المجهود مني " ، والحقيقة أن الجاحظ يستفيض في هذا الوصف ليكسب تعاطف القارئ مع هذه المرأة ويشده الى قصتها والتأثر بحالها وعملية الإسهاب في الحديث يمد في حالة

القلق والاثارة التي يشعر بها القارئ تجاه ما ستؤول اليه الحكاية وبالتالي فان الجاحظ يحاول جذب القارئ جذبا مبطنا الى رؤيته في نبذ البخل .وعلى الرغم من هذا التطويل في السرد على لسان المرأة فإننا نفاجأ بأن شخصية أبي القمام لا تبرز الا من خلال الحركة (فأخذهما وجعلها وجهه) ، ثم بعبارتين تختتم بهما الحكاية لكنهما على الرغم من الاقتصار اللفظي قد اسهما في حل الغموض وازالا التوتر والتربق الذي ظل مسيطراً على القارئ ، قي أنه جاء للإثارة والتشويق وكسب التعاطف على حساب الأحداث ذاتها إذ تظل أحداث عديدة ضمن إطار الحكاية خاضعة للإضمار والغموض ، فأبو القمام ترك المرأة في أزمته و غادر ثم يخبرنا الجاحظ أنها رآته بعد أيام دون أن يخبرنا بما حدث لها بعد أن عاد زوجها ولم يجدها متزينة لاستقباله وتنتهي الحكاية دون أن نعرف رد المرأة عليه وأنها صدقته أم لا .ويوضح الجاحظ هذين الموقفين من خلال استخدامه للتكثيف اللفظي والايحاء ؛ ففي الموقف الأول يشير الجاحظ الى ما حل بالمرأة من خلال قولها لأبي القمام " سبحان الله أما رحمتني مما صنعت بي " ، وهذا يدل على أنها لم تستطع تجاوز الموقف فسقطت فيما كانت تحاذره وألقت باللوم على ابي القمام الذي حاول التخلص من الموقف بإيجاد حيلة مناسبة وقد كانت الحيلة التي ابتدعها طريفة مضحكة بسبب القدرة التي تهيأت في ابتكارها وفي اعتمادها على سذاجة الناس وبساطتهم في نجاحها ، فلماذا لجأ أبو القمام الى هذه الحيلة بالرغم من أنه ليس من السهل تصديقها؟.قبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نعرف أن " البخلاء ليسوا بالاشخاص الذين يسيرهم عقلمهم أو يتحكم فيهم تفكيرهم بل الذي يسيرهم هو البخل المتحكم في نفوسهم والمسيطر عى شعورهم وسلوكهم ولغتهم". وأبو القمام وكما مهد له الجاحظ هو صاحب نظرية الإصلاح المتمثلة في أن لا يرد ما صار في يدي لك لذلك لم يكن يحتاج الى أن يعد المرأة بأن يعود اليها بما طلبته منه ونابت الحركة عما في نفسه (أخذهما وجعلها وجهه) ، وفي ذلك ايحاء بالسرعة وهي في ذات الوقت ممارسة عملية لنظريته " ما صار في يدي فهو لي . ومن أخرج من يده شيئاً الى يد غيره من غير ضرورة فقد أباحه لمن صيره اليه " .فكانت الحكاية صورة مقابلة للحديث الذي أورده الجاحظ على لسان ابي القمام .والحكاية الثانية ليست إلا صورة أخرى يتناول بها الجاحظ وصفاً لجانب من شخصية أبي القمام يثبت لنا أن أبا القمام لم يأكل الرغيف غماً وحزناً على فقد الفلس بل جوعاً وطمعاً وخوفاً من ذهاب الرغيف الذي صار في يده الى يد غيره .في هذه الحكاية يتعشق أبو القمام امرأة فلا يزال يتبعها ويبكي بين يديها حتى ترحمه وتحن عليه ثم راح يطلب اليها أن تهديه من أصناف الطعام ويكثر حتى علمت المرأة موضع هواه وأنه يحب الطعام لا أياها فقالت (رايت عشق الناس يكون في القلب وعشقتك انت ليس يجاوز معدتك".والحكاية السابقة تصل الى الاضحاك عبر اعتمادها لاسلوب المفارقة فابو القمام يطارد المرأة ويلح عليها ويبكي بين يديها حتى ترحمه لكن المفارقة تبدأ حين يستغل ذلك الحب فيطلب منها أن تهديه أطايب الطعام .والجاحظ ينقل لنا هذه الحكاية مستخدماً تقنية السرد ولكنه يتدخل للمشاركة الفعلية حين يهئ القارئ للموقف ومن ذلك قوله " وكانت مكررة وكان مقلاً".وفكرتي الاضحاك و السخرية التي يقوم عليهما كتاب البخلاء يتوصل اليهما الجاحظ عن طريق التناثبات الضدية ثنائية من يملك ومن لا يملك ومن هو مقل ومن هو مكتر ومن هو شعبان ومن هو جائع .ابو القمام مع هذه المرأة جائع يبحث عن الشبع ومقل يبحث عن مكتر ، والحيلة التي يلجأ اليها طريفة على الرغم من أنه لا يسوقها بشكل مباشر وهو يعتمد فيها على سذاجة الضحية التي يمارس معها الاحتيال ، ولكن المفاجأة التي تحقق للقارئ المتعة والاضحاك تكمن في اكتشاف الضحية للحيلة لتسير الأمور بعد ذلك نحو الانفراج .وتشبه هذه الحكاية الثالثة في اعتماد الحيلة على سذاجة الضحية وتبدو شخصية ابي القمام في هذه الحكايات اقرب الى شخصية الطفيليين منها الى شخصية البخيل رغم التقاطع الواضح بين ملامح الشخصيتين .يظهر التشابه مع شخصية الطفيلي من خلال استخدام ابي القمام لاسلوب الالاح على المسألة (فلم يزل يتبعها) في الحكاية الثانية ، وقول ابي الاصبغ في الحكاية الثالثة " الح ابو القمام " وهو الحاح الطامع بمال غيره المتباخل بماله .ويمكن أن نلاحظ الاختلاف في البناء الفني للحكاية الثالثة عن غيرها وذلك من خلال اعتماد السرد على راو ينقل الاحداث وهو ابو الاصبغ والسرد عندئذ يتحول الى الاسلوب المباشر المعتمد على نقل الحوار لتكثر في الحكاية مفردات (يسأل ، وليتخذ المتحاورون مظهرها يعتمد الحكاية فيحل الحوار مكان السرد الحكائي .لقد قدم لنا الجاحظ صوراً ذات أطوار متعددة من حياة ابي القمام وهي ليست في حقيقة الأمر الا ملامح مختلفة لجوهر واحد اوضحه الحديث الذي نقله الجاحظ على لسان ابي القمام في بداية الحكايات .ولقد كشف لنا الجاحظ عن نفسية بخيله وتطور شخصية البخيل ، فقد ظهر البخيل أول الأمر متستراً إذ لم يكن المبادر الى الحيلة لكنه صار أكثر جرأة فراح يلاحق امرأة بدعوى الحب ومن ثم استغلالها لملء معدته ، والحكاية الثالثة تظهره أكثر جرأة حين لا يتورع عن المجاهرة بنيته ، وحين يصل البخيل الى هذه المرحلة فإنه يوقع نفسه في مزالق حيله بما يكشف عن غبائه وجهله وهذا هو السر في ضحك المتلقي الذي يفاجأ بالمفارقة الواضحة بين أهمية الموقف وسوء تفكير البخيل

.ومما يزيد في جمال الموقف تلك الصنعة الجاحظية التي اعطت الموقف عمقا أكثر واسهمت في صبغ النص الحكائي البسيط
بالصبغة القصصية .